الفصل السادس
فلسفة الموت وآفاق التجربة التأملية

تمهيد :

الموت : هو النهاية التى تؤرق الملايين . وتجعل لون الحياة باهتا فى عيون الكثيرين . وتمثل النجاة من شرور العالم الدنيوى فى نظر طوائف أخرى الموت : هذا اللغز المحير . لا ندرى ما سببه ؟ وفى أى وقت يحل بنا ؟ وكما نختلف عليه رفضا وإيجابا . قبولا واعراضا . اختلف القدماء عليه . فلاسفة وعلماء وأدباء .. وفى مقدمة هؤلاء " سقراط " .

وكان سقراط ، يعتقد أن الفيلسوف الحق هو الذى لا يشغله عن التفكير فى الموت شاغل. إذ الموت هو السبيل إلى تحرير الفكر ، ولن تستطيع النفس أن تدرك أى شىء على حقيقته إلا إذا قطعت كل وشيجة تربطها بالجسم لأنه يعوقها عن المعرفة الحقة ، فليس البدن بحال ما هو الذى يوقفها على معانى العدل والخير والجمال وحينئذ فمتى عجز المرء عن إدراك هذه المعانى بالإبصار أو اللمس أو الذوق أو الشم فلابد من حس آخر غير تلك الحواس التى لا قوام لها إلا بالبدن .

فإذا كان من المستحيل فى الواقع أن تدرك أى شىء على حقيقته مادامت متصلة بالبدن فإنه يجب أحد أمرين : فإما ألا تستطيع الوصول بحال ما إلى تحصيل المعرفة وإما أن تصل إلى ذلك بعد الموت لأن النفس تصبح مستقلة وقائمة بذاتها . فى هذه اللحظة لا قبلها .

ثم يقول سقراط " وإذا كان الأمر هكذا فليس للفيلسوف إلا أن يأخذ العدة لهذه الرحلة . بأن يطهر النفس ويجعلها تحيا بعزلة عن البدن ما استطاع إلى ذلك سبيلا ، ولكن النفس لاتتحرر تماما من البدن إلا بالموت فانه هو الذى يفك عقالها ويحررها من اسرها وخضوعها للبدن ونزواته . والفلاسفة هم الذين يتوقون إلى خلاص نفوسهم من قيودها .

ولكن ليس معنى هذا أن سقراط يحبذ الانتحار كوسيلة للخلاص . فإنه يقول إننا ملك للالهة . فلا يحق لنا أن ننتحر ، وإنما يجب علينا أن ننتظر القضاء دون هلع أو فزع فإن الخوف من الموت لا يليق بالفيلسوف . بل هو مدعاه إلى السخرية منه . وذلك لأن الرجل الذى يحنق حينما تدنو ساعة الموت رجل لا يحب الحكمة . لكنه يحب جسده وماله . (١)

(١) د / محمود قاسم : فى النفس والعقل ص ٣٠ - ٣١ .

وكما أثار الموت الفلاسفة قديما وكذلك الأدباء فى القديم والحديث أثار أدباء المهجر الذين نحو فى مواقفهم منحى تأمليا فلسفيا متأثرين بأقوال الفلاسفة والحركة الأدبية فى أوروبا في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر حيث سادت نزعة الهروب من الحياة وفى مقدمة هؤلاء " بودلير " ١٨٢١ – ١٨٦٧ " الذى يقول " العالم ممل وصغير . اليوم وأمس وغدا " وفى ديوانه " أزهار الشر قصيدة بعنوان الرحلة " وهى دليل أكيد على ذلك " انها تجرب كل محاولات الخلاص لكى تصمم فى النهاية على الموت . أما ما يجلبه الموت فهو شيء لا ندريه فالمهم هو السفر فى حد ذاته ، وأما الشاطيء المجهول فلا أهمية له " (١) .

واختلف أدباء المهجر فى الموقف من الموت . هل هو بداية الخلود ؟ أم أنه ينشل الإنسان من صراع عالمه المادى ، ويخلصه من قيوده أم أنه يحرم الإنسان من سعادته الأبدية فى حياته ، وتهب رياحه الخريفية على شجرة الحياة فتقلع جذورها وتطيح بما عليها من أوراق وغصون وثمار .

وهل الموت موت الروح والجسد أم موت الجسد فقط ؟ وهل هناك بعث يؤمنون به ؟ أم هم ماديون؟

ذلك ماسأحاول توضيحه إن شاء الله .

.... فنسيب عريضه :

يرى أن الموت خير من قيود الأغلال والجمود فى مكان محدد والاختباء فى الثلوج يقول:

فقم بنا ياسمير نفسى ... نقفوا الأمانى الى الكمال
قم واترك الجسم حيث يبلى ... فالموت خير من الجمود

والموت عنده هو النهاية الحتمية للحياة . مهما حاول المفكرون والفلاسفة فلا داعى للتزاحم والضجيج والتكالب على تفاهات الحياة .

ويهرب الشاعر من حقيقة الحياة المرة إلى السكر ويغيب فى عالم الرؤى يقول فى [illegible]حته " رباعيات :

شربت كأسى أمام نفسى ... وقلت يانفسى ما المرام
حياة شك وموت شك ... فلنغمر الشك بالمدام

---

(١) عبد الغفار مكاوى . ثورة الشعر الحديث ص ٨٦ .

لا يـــأس لـيـــس الـحـيـــاة الا مـرحـلـــــة بدؤهـــا اخـتـــــام

ويقول لطبيبه : ويعبر بذلك عن عقيدته فى الموت بصورة فنية .

فقلـــت ياصـــاح جـــف زيتـــى فـبـاطـــلا تـجـبـر الســـــراج
إذا خبـــا النـــور فـــى الـــدرارى فمـــا تـــرى ينـفـــع الزجـــــاج ؟

جفاف الزيت هنا رمز فنى للانتهاء . ولا جدوى من محاولة استرجاع الحياة فنور النفس قد هرب من الجسم . فعاد الجسم كزجاج المصباح هل تراه يضىء ويبين الشاعر سر المأساة وأنه ربما يموت الإنسان حيا إذا مات قلبه فالناس يمشون وقبورهم فى داخلهم . والدمع دمع البكاء والألم .

يمشـــون والـرمـــس فـــى حشاهـــم والـــدم يـجـــرى مـــن الـنـــدوب
ماميتـهـــم يعظـمـــون قـــــدرا بـــل ديـــة الميـــت فى الجيـوب (١)

وبذل الشاعر كل شىء فى سبيل التعرف إلى شىء واحد . ترى ماهو ؟ لم يعرف حتى ما هو ذلك الشىء . وعاد حائرا فى آفاق اللاشىء يجهل حتى مصيره المحتوم .

* *

ومنهم من كان يتمنى الموت هروبا من الحياة التى تضج من حوله . وأفسد زمامه كل طريق مثل " قيصر سليم الخورى " الذى يقول :

لـــم أدْن مـــن سبـب أمـد لـه يـــدى متنـــاولا إلا وأبعـــده القـضـــا
يـا مـانعى اللـذات جُدْ بـالـذهـــا وامنـــع فـــؤادى مـــرة أن ينبضـــا
مـــاذا أرجـــى أن ألاقـــى فـــى غـد غـيـــر الـــذى لاقيـتـه فيمـا مضـــى
تبـالعيـــش لا تـــرى نفســـى بـــه لـــولا خطـــوط الشيب شيبا أبيضـا

... ومنهم من كان يخاف الموت حرصا على بهجة الحياة ، ورغبة فى التزود من مفاتنها مثل زكى قنصل الذى يقارن بين نفسه وبين الدوحة التى تساقطت أغصانها ولا شك أنها نظرة تحن للحياة وتكره الموت يقول :

---

(١) نسيب عريضه : الأرواح الحائرة ص ٨٣ - ٨٦ .

أكـذا ستسلبنـا الشباب يد الليالى الحائـره
وتبعثر الأيـام آمـال الشبـاب الزاهـره
وتعيـث فى أحلامه الغر الفواتن ساحـره
أكذا ستحرمنا النضارة والأمانى الساحـره

* * *

ومنهم من كان يرى الموت محررا من القيود والأسر فى قفص الدنيا الضيق ولا شك أن هذا الموقف يتمشى مع موقف فوزى من الحياة الرافض لها دائما يقول :

مـا وليـد الآلام غيـر أسيـر ... والـردى وحـده يحـرر أسـره
ضاقـت الأرض فـى الحيـاة عليـه ... وكفتـه فـى الموت أضيـق حفـره

ويقول مؤكدا نظرته هذه إلى الموت . فهو المعتق وهو الموثق :

والآن يـا مـوت إلـى اقتـرب ... ياحبـذا بالمـوثـق المعتـق
معتـق نفسـى مـن قيـود الأسـى ... مـوثـق جسمـى فى المدى الضيـق

وتغير إحساس فوزى فجأة حينما تلوح له أطياف الحب . فيرجو الموت أن يقف بل يأمر الموت أن يشفق على قلبه :

الحـب ؟ قـف يامـوت واشفـق علـى ... قلبـى ودعـه لحظـة يخفـق
لـى بغيـة . قـبـل الـردى ليتهـا ... تمـت فلـم آسـف ولـم أفـرق
وتـلك أن المـسـح محبـوبتـى ... فنحـن بعـد اليـوم لـن نلتقـى

وفى غياب الحب يصل كره " فوزى " للحياة إلى مرحلة يحبذ فيها الانتحار بل ويدعو إليه وقصيدة المنتحر بطاقة دعوة إلى ذلك يقول :

كبـرى ياقبـور جـاءك ضيـف ... هـو غيـر الأحيـاء فـى أطـواره
كـم تـوارى القبـور حيـا وكـم يمـ ... ـشـى على الأرض ميت لـم تـوراه
يذهـب النـاس مرغمـين الـى القبـ ... ـر وقـد جـاءه بمـلء اختيـاره
شاعـر لا يـرى الحيـاة سوى ليـ ... ـل بهيـم والمـوت مـن أسحـاره (١)

(١) أنظر كتاب فوزى المعلوف : شاعر البعد والوجد .

وفى هذه القصيدة يتوسل الشاعر الوزن الخفيف وهو وزنه المأثور " فى بساط الريح وشعلة العذاب وكثير من قصائده " يشحنه بالنغم المأساوى الحالك السواد وتراه يعزف على قيثارته كل وحشة . أما المعانى الظاهرة التى يسوقها فيه فترد موشحة بجلباب القنوط ، يحتضنها النغم . ويبعثها على إيقاع جنائزى يضاعف من وقعها .

ويبدو أن المعاناة العدمية هى معاناة خالقة فى شعر فوزى ، أبصر بها الحياة ليلا والموت صبحا .

وتمثيل الموت بهيكل رهيب ، يقوم الهول على خدمته والصلاة فيه وهى مما لا يتيسر إلا للفكر المبدع .

والموت عند " رشيد أيوب " نهاية كل شىء ونسيان كل شىء . وهو فى الوقت نفسه بداية لرفع الحجاب الذى قنع الحقيقة بألف قناع . وهو يجهل مصيره بعد الموت :

دنت المنية وانقضى عمرى ... ونسيت ما قد كان من أمرى
ماذا إذا رفع الحجاب غدا ... ألقى وقد أصبحت فى القبر

وعند نعمه الحاج :تتبدل القيم ويبلغ قمة التشاؤم والفلسفة حين يعيش الميلاد موتا والموت ميلادا . وهو يلتقى فى هذه النظرة مع فوزى المعلوف الذى أبصر الحياة ليلا ، والموت صبحا يقول متبرما بالحياة :

لو كان أمرى فى يدى ... لوددت أن لم أولد
فولادتى بدء الممات ... ويوم موتى مولدى

والموت كان قضية شفيق معلوف الأساسية التى من أجلها رفض الحياة وهو فى مطلع حياته وعلى دعائمها بنى فلسفته فيها .

وهو ينقم على الحياة بدافع من نقمته على الموت ولكنه فى الوقت نفسه يتحرق شوقا للخلود ، وهو يتمنى الموت مكفنا بأنوار القمر .

وفى ملحمته " الأحلام " يخصص حلما بعنوان " قبر الشاعر " . يتحدث فيه عن هدوئه " بعد العاصفة " ثم يسترجع ذكريات الفردوس . ثم يتأمل فى وجوده ويرى نفسه قطرة ذائبة فى محيط الكون وذلك فى نشيد بعنوان " أشباح وصخور " وبين دخان النار يلقى بهمومه ويتحدث عن الموت فيقول :

هـــو المـــوت أو رثنيـــه جـــــدودى فـــلا زمنـــى مقلـقـــا مـرقـــــدى
يـــــدب بمنسمـــــه فـيـطـيـــــــر شعـــــاع الأضـالـــــع والأكبـــــــد
ويغـتـــــال نفســـا فيخفـــق منـهـــــا أمـــانـــى تقضـــى بلا موعـــــــد

والحياة والموت عند الشاعر متوازيان ولكن الموت يقضى بحقيقته المفجعة على بهجة الحياة فالطبيعة نفسها يود الشاعر إشراكها فى مأتم الحياة يقول فى نشيده " أنشـــودة النزع ".

ألا لـــيـــت أنـــــــواره كـفـنـــــت بـقـايـــاى مـــن شبحـــى العـابـــــر
لأدفـــــن بـيـــن زهـــــور الريـــاض علـــى ضفـــة الـنـهـــر الـزاخـــــر
يجـــدد ربـــى فـــى كـــل عـــام نـضـــــارة مدفنـــى الـــزاهـــــر

وكانت هذه النظرة المتشائمة أحيانا ، والمبالغة فى بشاعة الموت أحيانا أخرى فى بداية عهد الشاعر بالحياة والتعامل معها ، فقد كتب " مطولته " الأحلام سنة ١٩٢٣ ولكن بعد مرور الأعوام . واختمار تجارب الشاعر . وتنامى طاقاته الشعرية والفكرية رأيناه فى كتابه " ستائر الهودج " يناجى زوجته التى رحلت مناجاة تشبه أن تكون صوتا روحانيا صافيا . وفى ذلك الصوت نغمة عذبه ترى أن الإنسان يعتق بالموت من قيود المادة . ويقطف النجوم والأسرار . وتتغير المتع الحسية إلى متع روحية وما أشهى حديثه لزوجته وهى فى العالم الآخر .

جـفـنـــاك تـــلاقيـــا لغيـــر فـــــراق
صـــرت أقـــرب الـــى تقطيـف النجـوم منـــك
يـــــــوم كـنـــــت عـلـــــى الأرض
ذكراك متعة لروحى ، وهى ترافقنى فـــى يقظتـــى
ما أشوقنى الى رؤيتك فى الحلم ولكننى منذ فارقتنـــى
فـــــارقـــتـــنى أحـــــلامـــــــــى (١)

* *

ويرى "جبران" أن الموت شفاء من جنون الحياة والأفكار. يقول من قصيدته " بالأمس ":

(١) شفيق المعلوف : ستائر الهودج ص ١٤٣ .

تلك حالي . فإذا قالت رحيل ما عسى حل به ؟ قولوا : الجنون
وإذا قالت أيشفى ويزول مابه ؟ قولوا ستشفيه المنون

وهو ينظر للموت بعقل المفكر . فهو لا يتمناه مثل فوزى المعلوف ، ولا يخشاه مثل غيره من الشعراء وغيرهم .

ولكنه يقف منه تبعا لنوعية الناس . فالموت نهاية للمثقل بأوزار المادة أما الذى تشبع بنسائم الروح وخفت عناصره فالموت انعتاق له . وبدء لقصته الخالدة فى العالم الأبدى يقول فى "مواكبه"

والموت فى الأرض لابن الأرض خاتمة وللأثيرى فهو البدء والظفر

ويقول :

فالموت كالبحر . من خفت عناصره يجتازه وأخو الأثقال ينحدر

ويفر جبران إلى الغابات حيث عالمه المثالى الذى تتلاشى فيه المسافات وتتداعى فيه الخيالات والرؤى . فهناك يفقد الموت طعمه ولونه

ليس فى الغابات موت ولا فيها القبور
فاذا نيسان ولى لم يمت معه الشرور
ان هول الموت وهم ينثنى طيّ الصدور

ويرد ذكر الموت كثيرا فى كتابات جبران . ومعتقده فى الموت لا ينفصل عن معتقده فى خلود النفس . وإيمانه بالغاب وجها صادقا للحياة وفى كتاب النبى " تقول له " الميترا "

نود أن تحدثنا الآن عن الموت .. فقال لها .. إنكم تريدون أن تعرفوا أسرار الموت ولكن كيف تجدونها إن لم تسعوا اليها فى قلب الحياة .

وهل موت الإنسان ، سوى تحرير النفس من مده وجزره المتواصل ، لكى يستطيع أن ينهض من سجنه ويحلق فى الفضاء ساعيا إلى خالقه من غير قيد ولا تعويق ؟ (١)

والرؤية المأساوية للحياة واعتبار الموت هو المخلص من الواقع " الكابوس " والسجن

(١) جبران : النبى ص ٩١ – ٩٢ .

الخانق " هو موقف الرومانسيين " دائما . فالموت وسيلتهم الوحيدة للعثور على الجديد وماهو هذا الجديد ؟ هو شيء غير محدد هو الضد الأجوف الفارغ للواقع الموحش وعلى قمة هذه المثالية . يتربع الموت . المملوء بالعدم والفراغ .

أليست أقوال الشعراء والأدباء السابقة تقترب من قول بودلير .

ياموت ! أيها الملاح العجوز آن الأوان فارفع المرساة !
مللنا المقام هنا ، ياموت فعجل بالرواح
إن يكن قد ادلهم سواد البحر والسماء
فإن قلوبنا التي تعرفها يفيض منها الضياء (١)

* *

وجورج صيدح " يفتح ذراعيه للموت . ويقف مرحبا بمقدمه بل ويدعو الناس إلى لقائه ... ولكن نلمح أن موقفه من الموت لا يبنيه على أساس فكرى معين أو فلسفة لها أبعادها ودلالاتها المحددة . ولكنه يدعو إلى نبذ العيش والترحيب بالمنون على طريقة الوعظ فى أسلوب خطابى يقول :

أيها الواجف من طيف الممات ... ينشد الغبطة فى طول البقاء
ليس لولا الموت فى الكون حياة ... فتوجه صامتا نحو السكون
ان فى طول البقا طول الشقا ... فانبذ العيش ورحب بالمنون

وإيليا أبو ماضى ينظر للموت من خلال رؤية اجتماعية فهو الذى ينادى بالمساواة فى قصائده الطين ، الحجر الصغير " نراه يعد الموت ميدانا للمساواة بين البشر ومن خلال قصته الشعرية " الشاعر والسلطان الجائر يوضح هذا الرأى فى تجربة شعرية موفقة ، فبعد الحوار بين الشاعر والملك حيث دحض الشاعر افتراءات الملك وادعاءاته التى افتخر فيها بالرياض الغن ، والبحر العميق ، والجيش الجرار ، والقصر والغابات والناس حتى ادعى أنه إله هذا الكون . وبيّن له الشاعر سخرية هذه المظاهر الكونية من الملك .

ويصدر الملك حكمه بالإعدام على الشاعر . ويموت الملك بعد ذلك ويلتقى الوجهان وجه الحق ووجه الطغيان . ويبرز الشاعر حينئذ موقفه من الموت .

---

(١) د / عبد الغفار مكاوى ثورة الشعر الحديث ص ٧٦ .

فـــى حـــومـــة المـــوت وظـــل البلـــى قـــد التـقـــى السلطـــان والشـاعـــر
هـــذا بـــلا مجـــد وهـــذا بـــلا ذل فـــلا بـــاغ ولا ثـــائـــر
عانقـــت الأسمـــال تـلك الحلـــى واصطـحـــب المـقـهـور والقاهـــر (١)

والموت حين يكون ميدان المساواة فهو لا يفرق بين أحد ، إنه عصف بالجميع إنه عاصفة .. ذهبت بمن صلحوا ومن فسدوا . ومضت بمن تعسوا ومن سعدوا :

وبمـــن أذاب الحـــب مـهـجـتـــه وبـمـــن تأكـــل قلبـــه الحســـد
وطـــوت مـلـــوكا مالـهم عـــدد فكأنـهـــم فـــى الأرض ماوجـــدوا (٢)

وتتسرب إلى نفس إيليا " رهبة الموت " وربما الشك فى حقيقته يقول من قصيدته الدمعة الخرساء . وفيها يخاطب زوجته " دوروثى " شريكة حياته . يقول :

أكـــذا نمـــوت وتنقضـــى أحـلامنـــا فـــى لحظـــة وإلـــى التـــراب نصيـــر
وتمـــوج ديـــدان الثـــرى فى أكبـــد كانـــت تمـــوج بهـــا المنى وتمـــور (٣)

ولكنه فى المرحلة الأخيرة من حياته يقر بهذه الحقيقة إقرارا لا شك فيه ولا خوف وديوانه " تبر وتراب " يمثل المرحلة الخامسة فى نتاجه الفنى .

وفى قصيدته " موكب التراب " نعثر على هذه الحقيقة . حين يخاطب الريح الشديدة التى أثارت الغبار وعقدته فى الفضاء كالسرادق .

مـن أيـــن جئـت ؟ وكيـف عجت ببابـــى ؟ يا مـوكـــب الأجـيـال والأحـقـــاب
أمـــن القبـــور ؟ فكيـف من حلوا بهـا أهنـــاك ذو ألـــم وذو تطـــراب ؟
ولهـــم صبـابـــات لنـــا ؟ أم غـــردوا فـــى بلقـــع مافيـــه غير خـــراب ؟

ثم يتخيل أنه رأى فى هذه الريح المتكاثفة . الشبيبة والكهولة ، والأحلام . والشاربين بكل كأس ، والظامئين ، والمدافعين والمستسلمين ، والغواة والمبتدعين ، والحسان والدميمات ،

(١) أبو ماضى : الخمائل ص ٩٠ .
(٢) السابق ص ١٠ .
(٣) السابق ص ١١ .

والعاشقين ، والعبيد والملوك .

يقول عن هؤلاء جميعا:

أبـــوا جميعـــا فـــى طـريق واحـــد الخاســـر المسبـــىّ مثـــل السابـــى

ثم يسخر من نفسه الحريصة على عهد الصبا قائلا :

فضحكت من حرصـى على ملك الصبـــا وعجبـت كيـف مضـى عليـه شبابـــى

ويقر بالحقيقة فى طمأنينة غريبة عنها تلك اللهفة القديمة والرهبة من الموت وأوهام التناسخ . وتقمص الزهر والغدير وتخيل العودة بصورة أخرى كما كان يمنى زوجته فى قصيدته " الدمعة الخرساء " ويقول فى " موكب التراب مخاطبا الريح " :

ووقعـت أنـت علـى تـراب ضاحـك لمـا وقعـت علـى فـى جلبابـى
وكـذاك أشـواق التـراب مآلهـا ولئـن تقـادم عهدهـا لتـراب (١)

لكننا نحس بنبرة الحزن الخفية تغلف الكلمات . فقوله " التراب الضاحك " يشبه رقصة المذبوح ، إنه عرف الحقيقة ولم يعد هناك دور للمقاومة وإلا كانت جنونا !! والقافية المكسورة توحى بهذه النبرة الحزينة المفعمة بالأسى ، وألف المد ثم الباء فى القافية يومىء إلى طول المعاناة الدفينة . ألسنا نشعر هناعندما ننشد هذا الشعر إنشادا سليما بأن أنفاسنا تكاد تنقطع فالألف الممدودة تمثل صحوة الموت والباء المكسورة تمثل رقدة الموت الأخيرة . وهذه المعانى تتجسد فى البيت الأخير :

وكـذاك أشـواق التـراب مآلهـا ولئـن تقـادم عهدهـا لتـراب

والأستاذ " جورج ديمترى سليم " . قام بإحصاء كمى " لمادة " موت " وش ك " للوقوف على موقف أبى ماضى من اليقين بالموت أو الشك فيه . وانتهى إلى ما انتهيت إليه سابقا وأثبت هنا ما توصل إليه بطريقته . فطريقة التحليل الإحصائى الكمى " هذه فى الدراسات الأدبية اتجاه علمى حديث يهدف إلى دعم هذه الدراسات باستخلاص الحقائق من النصوص الأدبية موضوعيا ، وقياسها رقميا .

(١) أبو ماضى : تبر وتراب ص ٢٤ – ٢٨ .

وبعد أن قسم مراحل تفكير أبى ماضى إلى خمس مراحل حسب ظهور دواوينه

(١) تذكار الماضى	(٢) الجزء الثانى	(٣) الجداول	(٤) الخمائل	(٥) تبر وتراب
١٩١١	١٩١٩	١٩٢٧	١٩٤٠	١٩٥٧

ووصل إلى النتائج التالية :

(أ) تكررت كلمة " شكوك " خمس مرات فى دواوين أبى ماضى الخمسة المعروفة منها ثلاث فى ديوان " الخمائل " وهذه كلها فى قصيدة " الدمعة الخرساء " .

(ب) يتأرجح الشك عند الشاعر صعودا وهبوطا على التوالى فهو أشد فى المرحلتين ٢ ، ٤ منه فى المرحلتين ١ ، ٣ ثم انه أشد فى المرحلة ٢ منه فى المرحلة ٤

(جـ) ينعدم الشك كلية فى المرحلة الأخيرة . ثم يقول : فإذا قارنا كميا " الشك عند أبى ماضى ب " الموت " عنده وجدنا أن فكرة الشك ترتبط ارتباطا وثيقا بفكرة الموت بل هى صورة حقيقية لها . وأثبت :

أ – أن فكرة الموت لازمت الشاعر طول حياته .

ب – أنها تسلطت عليه أكثر فى المرحلتين ٢ ، ٤ منها فى المراحل ١ ، ٣ ، ٥ .

جـ – أنها فى المرحلة ٢ أشد منها فى المرحلة (٤) .

د – أنها فى المرحلة الأخيرة تقف منفردة لا يقابلها " شك " (١) .

والعديد من قصائده يفسر النتائج السابقة .. فالموت أمامه يتخيله فى ظواهر كثيرة فبهجة الطبيعة يقتلها شبح الفأس ونشوة الكأس تفنيها حطمة الكأس .

ويلتقى مع فوزى المعلوف فى تحبيذه الانتحار لأن هذه نفسه وهو حر فيها وذلك معتقد لا يقيم الحياة على أساس سوى . فالانتحار هروب من مواجهة الحياة وضعف أمام المسؤوليات الجسام .

وديوانه الجداول يمثل المرحلة الثالثة من مراحل تفكيره . وفيه الطلاسم ملحمة الشك

(١) جورج ديمترى سليم : أبو ماضى : دراسات عنه وأشعاره المهجولة ٢٨ – ٢٩ .

الكبرى . والشك لا يرتبط بالألفاظ دائما كما حاول الباحث السابق . بل ربما تأتى قصيدة خالية من كلمة " شك وكلها شكوك فى شكوك " وتبدو هذه الظاهرة حينما يتحدث أبو ماضى عن فلسفة الموت فى تساؤلات متلاحقة تعبر عن حيرته الشديدة يقول :

إن يـــك المـــوت قـصـاصـــا ... أى ذنـــــب للـطـهـــــارة
وإذا كـــــان ثـــوابـــــا ... أى فـضـــل للـدعـــــارة
وإذا كـــــان ومـــا فـيـــــه ... ـــــه جـــــزاء وخـســـــارة
فلـــم الأسمـــاء إثـم وصـــلاح ... لـــســـــــــت أدرى

ويشغله مابعد الموت ويتساءل كيف يبعث ؟ وهل يعرف بعد الموت ذاته ؟ " وكيف يمكن أن يدرك السر وقد فقد رشده ؟ مع أنه لم يعرفه وهو فى حالة الإدراك أن عقله ينفى ذلك . (١) ويقول :

إن أكـن أبعث بعد الموت جثمانـا وعقـلا
أترى أبعث بعضا ؟ أم ترى أبعـث كـلا ؟
أترى أبعث طفلا ؟ أم تـرى أبعث كهـلا ؟
ثم هل أعرف بعد الموت ذاتى ؟ لست أدرى

* *

ياصديقـى لا تعللنـــى بتمزيـــق الستـــور
بعـدما ماأقضـى فعقلى لا يبالى بالقشـــور
إن أكن فى حالة الإدراك لا أدرى مصيـــرى
كيف أدرى بعد ماأفقد رشدى ؟ لست أدرى(٢)

وهو قبل ذلك فى ربيع ١٩٢٣ . أقر بجهله هذا بصورة مباشرة فى مقالته التى كتبها إثر وفاة أخته الوحيدة " جنى " بعد ولادتها الأولى فقال :

أنا لاأعرف مابعد الموت ، وربما كان ليس لى أن أعرف . ذلك سر خفى ذلك هو اللغز الأكبر . ولكنى أعرف أن فى العالم فكرتين ساريتين يعول عليهما الناس . وفى كلتيهما تعزية

(١) د / حسن جاد : الأدب العربى فى المهجر ص ٢١٥ .
(٢) أبو ماضى : الجداول ص ١٠٩ .

للروح الكئيبة مثل روحى .

الأولى : فكرة المؤمنين بالبعث والمعاد ، القائلين ان بعد هذه الحياة حياة أخرى ، أبهى وأجمل ، وأسمى وأكمل ، وأن الموت هو الجسر الذى يعبر عليه الناس إلى تلك الحياة .

والفكرة الثانية : هى فكرة الفلاسفة الذين يثبتون لإخوانهم البشر أن الإنسان مادة ، وأن المادة لاتفنى ، وأن مايكون اليوم لا يكون غدا ، هو كائن موجود ولكن فى شكل غير شكله الأول .

ويخاطب أخته قائلا : فأنا على الاعتقاد الأول ، أغبطك لأنك عبرت ذلك الجسر إلى الحياة التى لا حزن فيها ولا غم ، وسأظل أسقى شجرة الأمل فى نفسى إلى أن تنطلق من قفصها الترابى ، فتلتقى روحى وروحك ، حيث لا تحذران الفراق .

وأنا على اعتقاد القائلين بتحول المادة وخلودها ، وسأظل مؤمنا بوجودك إيمانى بوجودى ، ولا أرى فى التحول بأسا عليك . فأنت لا تصيرين إلا إلى حسن جميل لانك كنت وما تحبين إلا الحسن الجميل ، ومافيك إلا الجميل الحسن "(١)

وفى مراثيه تبدو عقيدته المؤمنة بالبعث فى المرحلة الأخيرة من حياته كما كانت فى المرحلة الأولى . والقصائد فى ديوان تبر وتراب وهى :

الشاعر (١٦٩ - ١٧٣) مازال فى الأرض حيا (١٧٤-١٧٧) ياقائد القوم (١٧٨-١٨١)
فى رثاء خليل مطران فى رثاء أمين الريحانى فى رثاء د/ رزق حداد

ليتهم عرفوه " ١٨٢-١٨٨ " سكت الشادى وبح الوتر (١٨٩-١٩٣)
فى رثاء يعقوب روفائيل صاحب مجلسه الاخلاق فى رثاء ندرة حداد

لم يهدم الموت إلا هيكل الطين "١٩٤-١٩٧ "
فى رثاء نسيب عريضه .

" ريح الردى " ولم يحدد الشاعر من رثاه فى هذه القصيدة . ومع إيمانى بأن الرثاء تؤثر فى أفكاره المجاملات تأثيرا يضر بالفكرة نفسها فى أغلب المواقف . إلا أننى لاحظت أن الخط

(١) جورج ديمترى سليم : أبو ماضى دراسات عنه وأشعاره المجهولة .

الفكرى لأبى ماضى فى هذه القصائد هو إيمانه بالبعث واعتقاده بأن الموت حق . وأن الميت يكون بجوار الله الخالق المبدع . يقول :

إن الـذى قـد كان معكـم قـد مضـى ... مـن موضـع أدنـى لأرفـع موضـع
مـن عـالـم متكلـف متصنـع ... تشقـى نفـوس فيـه لـم تتصنـع
لـلعالـم الأسمـى الطهـور ... ومن مجاورة الأنام الى جوار المبدع (١)

ويقول فى رثاء حداد وقد مات فى مأتم عرس :

شاعـر أعجـب معنـى صاغـه ... للبـرايـا .. موتـه المبتكـر
يارفيقـى ما بلغـت المنتهـى ... ليسـت الحـد الأخيـر الحفـر
كلنـا منتظـر ساعتـه ... والمصيـر الحـق ماننتظـر (٢)

ومنهم من كان ينظر للموت فى خشية ورهبة يرونه ضروريا ومنقذا من مآسى الحياة ومن هؤلاء الأدباء الشاعر رياض المعلوف .

والموت قليل الأصداء فى أشعاره فقلما نعثر على هذه المادة " م و ت " اللهم إلا فى ديوانه " الأوتار المتقطعة " واعتقد أن الشاعر قابل الحياة بهذا التشاؤم المفرط نتيجة لظروف آنية . وهو بعد ذلك مقبل على الحياة ، فرح بها ، ودواوينه زورق الغياب : خيالات . غمائم الخريف " شاهد إثبات على ذلك " .

وقد حدثنى برأيه فى الموت . وهل هو النهاية أم المعبر ؟ فى رسالة قال فيها الموت لا غرو أنه شىء مخيف ، ! ولكننا نراه أحيانا ضروريا ومنقذا لمآسى الحياة ورحم الله أخى فوزى المعلوف القائل :

مـن يمـت ألـف مـرة كـل يـوم ... وهـو حـى يستهـون المـوت مـرة

وإذا لابد من الموت فلماذا نخشاه ؟ ونجبن تجاهه .

ألم يقل الشاعر ؟ وإذا لم يكن من الموت بد " فمن العجز أن تموت جبانا أما الموت وفلسفته فأى فلسفة تصلح فيه ؟

---

(١) أبو ماضى : تبر وتراب ص ١٨٨ .
(٢) السابق .

هذا الذى يحصد الأرواح بمنجله الدامى ! .. ومهما تفلسف الفلاسفة . فانهم ماتوا ويموتون دون أن يسبروا غور سره وبه نهاية الحياة لا أكثر ولا أقل . والله أعلم بما وراء اللانهاية ، ونهايتها المفجعة .. المروعة ومن الناس من يعد الموت معبرا إلى حياة جديدة فبالله من عاد إلينا من عالم الموت ليخبرنا عن هذه الحياة التى هى ماوراء الموت .

ونحن نتغلب على الموت بآثارنا التى تدل علينا ونخلد . وفيما يلى هذان البيتان من الشعر لأخى فوزى وهى ماقبل الموت والخلود .

إيــه يامــوت لــن تــمــس خــلــودى فاقــض ماشئــت لست وحدك تقضــى

فــأنــا خالــد بشعــرى علــى رغــم زمــان عن قيمــة الشعــر يغضــى

" رياض المعلوف – زحلة لبنان ١٣/١٢/١٩٧٧م "

* * *

ومن أدباء المهجر من كان ينظر إلى الموت على أنه ولادة جديدة . وذلك إيمانا بهم بعقيدة التناسخ : وفى مقدمة هؤلاء . ميخائيل نعيمه .

وقد تحدث كثيرا عن معتقده هذه فى قصصه ، وأشعاره ، ومقالاته .

ففى قصة " لقاء " يؤكد هذه العقيدة الهندية القديمة (تناسخ الأرواح) " التى تؤمن بأن الأرواح لا تخرج من الأرض بل تظل تنتقل على مدار الزمان من جسم إلى جسم ساعية فى كل ولادة جديدة إلى تحقيق مايمكن من الكمال الإنسانى .

وهذه العقيدة الشرقية القديمة ليست فى الحقيقة سوى رمز لحب البقاء الذى تطمح إليه الإنسانية ، فليس من السهل أن يتصور الإنسان أنه بالموت يفنى ويتلاشى ولذلك جاءت الكتب تمنيه بحياة أخرى خالدة لاموت فيها .

أما عقيدة التناسخ فتمنيه بأنه لا يموت بموت جسده بل يعود إلى الظهور فى جسد آخر ليحقق فى حياته الجديدة مافات تحقيقه فى حياته السابقة . (١)

وفى كتاب " مذكرات الأرقش " يتحدث عن الموت فى حوار شائق بين الأرقش والموت

(١) عيسى الناعورى : أدب المهجر ص ١٥٧ .

وذلك بعد أن جاءت للأرقش رسالة من سنحاريب يقول له فيها " اكتب وصيتك " وتأخذ ما يقرب من سبع صفحات من ٢٥ – ٥٨ .

ويرى نعيمه فى هذه القصة أن الموت طريق الاكتمال . والأرواح لاتموت . والحوار الآتى يوضح هذا المعتقد .

الأرقـش : وماهو شغلك أيها الموت ؟

المـــوت : أن أكمل الناقصين ؟

الأرقش : وإذا اكتمل الكل ؟

المـــوت : مات الموت . ولكن الكل لن يكتملوا دفعة واحدة .

ثم يقول له :

أما الأجساد فلابد من موتها لأنها فى حاجة إلى الغذاء ، وما كان فى حاجة إلى الغذاء كان لامندوحة له عن أن يتغذى بغيره . ويتغذى غيره به . ولولا الموت لضاقت الأرض والسماء بما تنسلان . وأما الأرواح فغذاؤها الأرواح وهى لاحجم لها ولا قياس . فلا الأرض تضيق بها ولا السماء . (١) والموت حينئذ ليس إلا جسرا يصل مابين حياتين :

" فالموت ليس إلا محطة من محطات عمر يمتد من الأزل إلى الأبد . وعن عقيدة التناسخ يفصح نعيمه حين يخاطب الأرقش نفسه .

" وستشحذ غفوة الموت قابليتك على الاستمتاع بالوجود فتستفيق منها وبك نهم جديد إلى حياة جديدة مثلما تستفيق من غفوة ليلتك ويك اشتياق الى النهار الآتى (٢) .

وفى كتاب " زاد المعاد " يتطور هذا المعتقد حين يتخيل نعيمه أن الأجساد تتحول إلى أجساد أخرى أو تتحول إلى نبات وطير وحيوان . وهو هنا ينفى عن الأجساد الموت المفهوم .

وقبل ذلك فى قصة الأرقش قال إن الأجساد لاتموت . وقد كتب نعيمه " مذكرات الأرقش سنة ١٩١٧ .

---

(١) م . نعيمة مذكرات الأرقش ص ٥٣ ، ٥٥ .
(٢) السابق ص ٩٣ .

ولم ينشرها إلا سنة ١٩٤٩ .(١) وكتب مقالة الموت والحياة سنة ١٩٣٤ يقول نعيمه :

إنها لا أحجية أن تميت نبات الأرض وطيرها وحيوانها . لتحولها لحمافى جسدك ودما وعظما ، وأن تدعو موتها حياة .

وعندما تحول الأرض جسدك نباتا وطيرا وحيوانا أن تدعو ذلك موتا (٢) وفى مقالته " الانتحار " ينفى الموت وإنما هي حياة متغيرة ، والصخرة رمز لهذا الملك الذى يطوف بحياة الناس . فهى تمل حياتها الرتيبة . وإذا تغوص فى البحر ولا تموت ولكن ينبثق منها اللؤلؤ وبرغم ثراء هذه الحياة ملتها الصخرة . فانحسر الماء عنها ونبتت من بين ذراتها الأشجار وعادت أنضر من ذى قبل .. ولكنها ملت هذه الحياة أيضا وحنت إلى الماء ثانية .

وما إن أتمت الصخرة الصلبة كلامها حتى هبط عليها من الفضاء الأعلى نيزك كبير فطحنها طحنا . مبددا ذراتها فى الهواء ، ولما استقر المقام التفت إلى ما حواليه وقال " وطن جديد " وعمر جديد ، الا سبحانها حياة لاتطرحنى بيد الا لتتلقفنى بالأخرى " (٣)

وربما يرمز نعيمه إلى أن الإنسان سيظل فى حيرته الكونية وهو مرتبط بالهيكل المادى ولن ينعتق إلا إذا صار كائنا روحيا خالصا . ولن يصل إلى هذه المستوى إلا بعد مراحل كثيرة من التحولات والتغيرات ويوضح نعيمه فى مقالته . بتفكير وبدون تفكير . (٤)

أن الذاكرة لاتموت . وذلك فى الحوار الذى يدور بين شخصيتين على طرفى نقيض : الأولى يمثلها : بوفريد " وهومفكر . يحلل الأمور بعمق والثانية يمثلها بوسعيد ، وهو سطحى لايتمعن فى أى شىء .

وبوفريد يقول " لبوسعيد " تمسك بالبهجة واحفرها فى ذاكرتك . فيقول :

بوسعيد ، وما نفعى من حفرها فى ذاكرتى . مادمت سأغدو وذاكرتى ، فى النهاية . طعاما للدود ؟ .

بوفريد " الذاكرة لا تأكلها أى آكله . لا الدود ولا النار ، ولا التراب ولا أى قوة فى الأرض

---

(١) السابق ص ١٣٦ – ١٣٧ .
(٢) زاد المعاد ص ٨٨ .
(٣) م . نعيمه المراحل : ص ١٧٢ .
(٤) م . نعيمه : هوامش : ١٣١ – ١٤٠ .

أو فى السماء .

ويفسر نعيمه معتقده هذا فى كتابه " اليوم الأخير " حين يؤكد أن ما يلحق الإنسان من شقاء دنيوى هو عقاب له عن الآثام التى ارتكبها فى " حيوات سابقة " ويقول : لعل الذى راقنى من هذه الفكرة فى الدرجة الأولى ، هو أنها تقضى على رهبة الموت فتجعل منه خادما أمينا للحياة لاخصما لدودا لها ، ثم أنها تردها إلى " العدل " و " الحق " و" الحياة معناها " فما يصيبنى من لذة وألم هو حصاد ما أزرعه فى هذه الحياة ، ومازرعته فى حيوات سابقات من بذور صالحة أو صالحات (١).

وإذا كانت عقيدة " التناسخ " هى محور تفكير نعيمه وجبران ومن حذا حذوهما من المهجريين فلهم رأيهم الخاص . وفلسفتهم المستقلة .

أما أن تفضل هذه الفلسفة على الفلسفة الإسلامية التى تقول بفناء الأجساد وانتظار الروح مقترنة بالجسد مرة أخرى فى العالم الآخر ، وبما فيه من بعث وثواب وعقاب . وجنة ونار كما وضح القرآن الكريم . فذلك مالا أقبله .

وبخاصة من ناقد مثل الأستاذ " الناعورى " حينما يفضل فى جرأة عقيدة التناسخ ويقول مرددا الكلام الذى احتج به نعيمه فى كتابه اليوم الأخير . يقول : وفى يقينى أن هذه العقيدة الساذجة أوقع فى النفس مما سواها ، لأن الإنسان يفضل أن يظل فى الوجود يرى ويسمع ويشم ، ويذوق ويمشى على أن تعيش روحه خالدة فى عالم آخر غير الأرض (٢) .

فهل ينكر " الناعورى " مشاهد الجنة والنار فى القرآن الكريم ؟ وهل غاب عن وعيه ووجدانه الصافى . وعقليته المتفتحه . تصوير القرآن ليوم البعث وبراهينه القوية فى كيفية إحياء الناس ؟

وهل نسى أو تناسى أو أنساه حب التفلسف التقليدى منهج الإسلام " الوسط " وأن الفلسفة القرآنية المستمدة من النبع الإلهى . تسمو فوق فلسفة الماديين الذين يتنكرون للروح بل وتهزأ بهم .

وتنأى بنفسها أيضا عن عقيدة الهنود " الساذجة التى تحتقر الجسد ورغائبه المشروعة

(١) م . نعيمه : اليوم الأخير ص ١٠٦ .

(٢) عيسى الناعورى : أدب المهجر ص ١٥٧ .

إنها والحق أقول لا تنكر على الجسد متطلباته الضرورية التى بها يفيد ذاته والناس ولا يضرها ويضر الناس .

وهى لا تهيض جناح الروح . بل تمدها بالوسائل والمرغبات . وتمهد لها الآفاق لتصل مابين الأرض والسماء . وتجعلها فى قران أبدى مؤمن بقدرة الله المبدعة الخلاقة .